

2 نوفمبر 2007

## الدكتورة عواطف عبد الرحمن تشارك في الجدل حول جونل بنين ومنهجها المسكوت عنه في تاريخ اليهود المصريين

قرأت الحوار الذى أجراه محمد فرج مع المؤرخ الإسرائيلي الأمريكى جونل بنين والذى نشرته البديل بعدد 26 أكتوبر وأبرز المحاور فى صدر عناوينه تهمة السامية التى وجهها المؤرخ الإسرائيلي للمؤرخ المصرى المرموق الدكتور رعوف عباس وأدهشنى الأسلوب الذى أدار به المحاور الحديث، إذ لم يحاول أن يفند هذه التهمة بطرح التعريف الصحيح لمعاداة السامية باعتبارها تهمة عنصرية صهيونية المنشأ. وقد نجح الغرب فى تصديرها إلى العالم العربى متجاهلا عن عمد ما يشير إليه علماء الأجناس من أن العرب ينتمون إلى العرق الجنسى السامى والحامى، وأن هذه التهمة أجدر أن توجه إلى الأوروبيين والنازيين الذين اضطهدوا اليهود وخلقوا ما يعرف بالمشكلة اليهودية، وعندما فشلوا فى حلها قاموا بترحيلها إلى العالم العربى الذى كان يخضع آنذاك للسيطرة الاستعمارية الأوروبية ونجحوا دون وجه حق فى غرسها فى التربة العربية فى إطار المشروع الاستعمارى والإمبريالى الأوروبى والأمريكى، وها هم الآن يروجون لما يسمى "بالإسلام فوبيا" كأطروحة جديدة لتبرير كراهيتهم للإسلام والمسلمين بعد أحداث 11 سبتمبر، وهكذا تتوالى حلقات المسلسل الاستعمارى والهيمنة الغربية، ولكن فى صيغ جديدة ضد الشعوب العربية والإسلامية، والواقع أن الدكتور رعوف عباس ليس فى حاجة إلى تبرئة نفسه وغيره من العلماء المصريين والعرب من هذه التهمة المبتذلة المموجة والتى تكشف عن عمق وتغلغل روح التعصب والعنصرية لدى العديد من الكتاب والمثقفين الغربيين الذين يحاولون التدثر بغطاء الموضوعية والنزاهة العلمية وهم أبعد ما يكونون عن شرف الالتزام بها.

### 1 - هل للحقيقة وجهان ؟

قرأت فى نفس العدد من البديل مقالا بعنوان نهاية عصر أمسك يهودى، ولقد أثار دهشتى هذا العنوان، وكان الأحرى أن يكون العنوان هل أنتهى عصر أمسك صهيونى فى مصر؟! وكان الأجدر بكاتب المقال السيد أحمد زكى عثمان أن يطلع على الدراسات العلمية العديدة التى قام بها الباحثون المصريون والعرب عن النشاط الصهيونى فى مصر والعالم العربى، والتى تميزت بدرجة رفيعة من الدقة العلمية واستهدفت إبراز الحقيقة التاريخية عن الصهيونية وأطماعها التوسعية فى فلسطين والأساطير التى استندت إليها فى تبرير إقامة ما يسمى الوطن القومى لليهود فى فلسطين والتى تنبه لها بعض المفكرين الأجانب وأبرزوها وعوقبوا بسببها.

ولعل أكثرها سطوعا ما قامت به الدوائر الصهيونية ضد المفكر الفرنسي روجيه جارودى عقابا له على كتاباته عن الأساطير الصهيونية والمؤرخ الإسرائيلي الجنسية الآن بأبيه الذى طرد من الجامعة العبرية بسبب دعمه للباحث تيودور كاتز طالب الماجستير الذى قدم رسالة عن الملابس التاريخية التى أحاطت بمذبحة بلدة "طنطورة" التى أرتكبها الجنود الصهاينة وقتل فيها العشرات من الفلسطينيين عام 1948، وقد رفضت الرسالة وتمت تصفية الحساب مع أبيه فى الوقت المناسب.

ولا يزال مسلسل الاضطهاد مستمرا ضد المؤرخين الجدد فى إسرائيل.

لقد قرأت المقال والحوار وفوجئت بكم هائل من الخلط والالتباس وإلقاء التهم جزافا وطعن فح فى النزاهة العلمية للعلماء والمفكرين المصريين فضلا عن تسفيه آرائهم والسخرية من تمسكهم بالاتجاه القومى، وذلك فى محاولة غريبة للتعمية على وحشية المجازر وحرب التجويع والإبادة التى تشنها إسرائيل على الشعب الفلسطينى، وهى محاولة جديدة لاختراق وترويض العقل المصرى من خلال منهج انتقائى تفكيكى دأبت الدوائر الصهيونية على استخدامه مستهدفة طمس الذاكرة الوطنية لدى الشعب المصرى الذى عارض بجميع شرائحه معاهدة الصلح مع إسرائيل وقاطعت منظماته الشعبية والنقابية ومؤسساته الأكاديمية النشاط الصهيونى فى مصر.

وإذا كان المؤرخ الإسرائيلى الأمريكى جوئل بنين قد حرص على أن يبرز فى كتابه (شتات اليهود المصريين) الوجه البرىء لليهود المصريين، وتأكيد وطنية الجماعة اليهودية فى مصر متجاهلا عن عمد ذكر دورهم فى الدعاية للمشروع الصهيونى فى فلسطين من خلال الصحف وسائر الأنشطة الدعائية للحركة الصهيونية، إذا كان الأمر كذلك فإن واجبى كباحثة مصرية عربية أن أوضح الحقيقة التاريخية عن اليهود المصريين ليس فقط بهدف تصحيح الرؤية المتحيزة المضللة للرأى العام التى تبناها المؤرخ الإسرائيلى الأمريكى جوئل بنين، ولكن أيضا من أجل تنشيط الذاكرة الوطنية والقومية لدى الأجيال الجديدة فى مصر والعالم العربى.

يقول كاتب المقال إن هذا الكتاب (شتات اليهود المصريين) يحمل فى طياته أكثر من عمل توثيقى، والتوثيق يقتضى الأمانة والشمول والوصد الدقيق لوقائع التاريخ، وتكشف دراسة جوئل القراءة الانتقائية المبتسرة لتاريخ الطائفة اليهودية فى مصر، إذ يستنكر استبعاد المؤرخ المصرى طارق البشرى لليهود من مفهوم الجماعة الوطنية واقتصاره على الثنائية الدينية (المسلمين والمسيحيين). ويحاول المؤرخ الإسرائيلى الأمريكى أن يرد على ذلك موضحا محاولات الطائفة اليهودية فى مصر للانخراط فى الجماعة الوطنية مثل غيرها من الطوائف فى سبيل بناء دولة تقوم على المواطنة خصوصا فى الفترة التى أعقبت ثورة 1919، وهنا يجدر بنا الإشارة فى إيجاز إلى تاريخ الطائفة اليهودية والدور الذى لعبته فى خدمة الحركة الصهيونية.

## 2 - نجحت الصهيونية فى اختراق النخب الليبرالية تحت غطاء حرية الفكر لتحديد مواقفها من الصرع العربى الإسرائيلى

لقد ساعدت الظروف الذاتية والموضوعية لكل من المجتمع المصرى والطائفة اليهودية منذ منتصف القرن 19 على أن يحتل اليهود مع سائر الأجانب مكانة كبرى فى تشكيل الواقع الاقتصادى فى مصر وقد بلغت سيطرة اليهود على مجالات فى العمل "التجارة والصناعة والبنوك" حدا بلغ أن الراسماليين اليهود كانوا يساهمون فى إدارة وتوجيه حوالى 95% من الشركات المصرية ويسيطرون على جانب ضخم من رؤوس أموالها. ورغم أهمية وخطورة الدور الذى لعبه اليهود فى الحياة الاقتصادية المصرية غير أن مشاركتهم فى الحياة السياسية تميزت بالضآلة واقتصرت على بعض الأدوار الفردية، وقد تميز الوضع السياسى لليهود فى مصر منذ عهد محمد على وحتى قيام ثورة يوليو 1952 بالاستقرار بسبب العلاقات الوثيقة التى كانت تربطهم مع جميع الحكام الذين تولوا على مصر، مما ساعدهم على الاحتفاظ بامتيازاتهم فى ظل جميع العهود السياسية. ولم ينجح اليهود فحسب فى السيطرة على مفاتيح الاقتصاد المصرى فضلا عن قدرتهم البارعة فى استقطاب اهتمام ورعاية القيادات الوطنية ورؤساء الحكومات ورجال القصر بل أمتد نفوذهم فى محاولات متصلة لاجتذاب مساندة وعطف القيادات الفكرية والسياسية إلى الحد الذى ضمنوا به امتناع هؤلاء الكتاب عن كتابة أى شئ يؤدى بشكل أو آخر إلى كشف النوايا الحقيقية للنشاط الصهيونى الذى كان يحاول التخفى خلف القناع الدينى لليهود المصريين والذى بدأ منذ زيارة هرتزل لمصر عام 1904 لبحث مشروع الاستيطان اليهودى مع السلطات المصرية، وأسفرت زيارة هرتزل عن تأسيس جمعية بن زيون (بنى صهيونى) 1908. التى أعلنت تبنيها لبرنامج مؤتمر بال الصهيونى 1897 وقد تركز نشاط الجمعية فى البداية فى تنظيم المحاضرات والاحتفالات التى تدعو إلى تحقيق أهداف المنظمة الصهيونية العالمية، ثم شاركت فى تسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين وبانتهاء الحرب العالمية الأولى اتسعت أشكال الاختراق الصهيونى لمصر. وتمثلت فى منظمات الشبيبة الصهيونية ورابطة نوادى المكابى وتوج ذلك النشاط بتأسيس أول فرع للمنظمة الصهيونية العالمية عام 1918 برئاسة ليون كاسترو وإصدار المجلة الصهيونية كلسان ناطق باسم المنظمة الصهيونية وكأداة فعالة لنشر الدعوة الصهيونية.

كما كان فرع الكيرن كايميث " الصندوق القومى لليهود" وسيلة أخرى لجمع التبرعات من اليهود المصريين لشراء أراضى فلسطين، وكانت الجمعية المصرية لأصدقاء الثقافة العبرية وسيلة فعالة لنشر الثقافة العبرية بين أبناء الطائفة، وكانت تقوم بإيفاد بعثات دورية من يهود مصر إلى فلسطين، حيث كان يتم تزويدهم بالفكر الصهيونى ثم يعودون إلى مصر بعد أن يصبحوا كوادراً قادرة على نشر وترويج هذا الفكر.

والواقع أن الحرب العالمية الثانية قد أتاحت للنشاط الصهيوني في مصر فرصة الاتساع والتنوع بسبب وجود العديد من اليهود من جنود جيوش الحلفاء خصوصا من المتطوعين الصهاينة الذين رحبت بهم المنظمة الصهيونية في مصر، وأتاحت لهم سبل المشاركة مع شباب الطائفة الإسرائيلية في مصر في الأنشطة الدعائية وجمع الأموال والتبرعات وإرسالها إلى الوكالة الصهيونية في فلسطين.

وقد ظل فرع المنظمة الصهيونية في مصر يمارس نشاطه كقاعدة رئيسية للاختراق الصهيوني داخل المجتمع المصري تحت اسم الإتحاد الصهيوني حتى إعلان قيام دولة إسرائيل عام 1948، وما كان للنشاط الصهيوني أن يوجد أصلا في مصر فضلا عن أتساعه لولا التسهيلات التي قدمتها السلطات المصرية خصوصا أجهزة الأمن المصرية التي كانت في أيدي الإنجليز كلية في ذلك الحين. كذلك العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الطبقة الحاكمة المصرية مع كبار الرأسماليين اليهود الذين كانوا يمثلون قوة أساسية في بنك مصر وإتحاد الصناعات المصرية بقدر ملحوظ في استمرار النشاط الصهيوني، لقد كانت خريطة الأعداء والحلفاء واضحة في أذهان الساسة الصهاينة وركائزهم في مصر، كما أن الازدواجية وتغيير المواقع بما يتفق مع طبيعة كل مرحلة من مراحل النشاط الصهيوني كان يعد إحدى السمات المدروسة بالنسبة للتحرك الصهيوني في مصر. ورغم وحدة الهدف الصهيوني ووضوح معالمه فانه أخذ عدة أشكال متباينة كانت تصب جميعها في المجرى الرئيسي للنشاط اليهودي ولعل أسطع مثال على ذلك موقف ليون كاسترو الذي انضم إلى قيادة الحركة الوطنية المصرية ممثلة في حزب الوفد، وتمكن من اكتساب ثقة الزعيم سعد زغلول والذي صحبه معه في وفد المفاوضات إلى لندن وقام بتكليفه بالتحدث باسم الوفد في أوروبا. كما صرح له بإصدار صحيفة *alherite*، ونجح ليون كاسترو من خلال الدور المزدوج الذي لعبه في استثمار هذه الإمكانيات التي أتاحتها له الحركة الوطنية المصرية لصالح الحركة الصهيونية، فقد جند صحيفته الوفدية للبرلمان للفكر الصهيوني وكان يقوم بتحويل الاعتمادات المخصصة للدعاية للقضية المصرية في الخارج إلى الصندوق القومي اليهودي لشراء الأراضي الفلسطينية وإقامة مستعمرات صهيونية عليها، ورغم هذا النشاط الصهيوني المتزايد والذي قوبل بتساهل مريب من السلطات الحاكمة، وبرغم الحملات العنصرية التي اتسمت بالعداء الشديد التي نظمها الإخوان المسلمين ومصر الفتاة وكانت تستهدف طرد اليهود المصريين بعد انكشاف دورهم في خدمة الأطماع الصهيونية في فلسطين إلا أنه وحتى عام 1948 لم يهاجر إلى فلسطين من اليهود المصريين سوى عدد ضئيل فقد هاجر 20 ألف يهودي من مصر عام 1949 ولم يتجه منهم إلى إسرائيل سوى 7 آلاف يهودي. بينما استقر الباقون في أوروبا بعد تهريب أموالهم من مصر، وهذا يعني أن التيار الصهيوني كتيار استعماري قد اعتمد على عناصر ذات انتماءات أوروبية، ولم ينجح في أن ينبثق من فئات اجتماعية مصرية، ولا شك أن الطبيعة التي تميزت بها الطائفة اليهودية في مصر قد حالت دون مشاركتها في الحركة الوطنية المصرية بل خلقت منها تربة خصبة للدعوة للصهيونية بسبب تعدد

جنسيات اليهود المصريين الذين اختاروا "خصوصا الشرائح العلية" - منذ مجيء الاحتلال البريطانى إلى مصر - الجنسية البريطانية أو الفرنسية طمعا فى الاستمتاع بالامتيازات الأجنبية، وقد ظلوا محتفظين بجنسياتهم الأوروبية حتى بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية عقب معاهدة 1936، وعندما طردتهم حكومة عبد الناصر عقب العدوان الثلاثى عام 1956 كان ذلك بسبب انتمائهم للجنسيتين البريطانية والفرنسية وليس بسبب ديانتهم اليهودية.

هذا وقد تواقبت أساليب الاختراق الصهيونى لمصر مع مراحل تأسيس ما يسمى بالوطن القومى لليهود فى فلسطين، فإذا كانت مرحلة العشرينيات التى شهدت صدور وعد بلفور قد استلزمت اللجوء إلى أساليب اتسمت بالحذر ومحاولة التخفى وراء أقنعة مختلفة مستهدفة التأثير على رأى العام المصرى، وكسب تأييده إلى جانب الحركة الصهيونية على أساس أن اليهود يسعون إلى إيجاد ملجأ فى فلسطين للمضطهدين منهم فى أوروبا، فقد كان من الخطورة أن تفصح الحركة الصهيونية عن إستراتيجيتها قبل أن تتضح الظروف لصالحها.

لذلك تدرجت فى أساليبها الدعائية بحيث كانت تتسق مع حجم الإنجاز الصهيونى الذى كان يتم على الأرض الفلسطينية فى العشرينيات صدرت صحيفة إسرائيل 1935 وفى الثلاثينيات صدرت الشمس 1934 وعندما وصلت الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلى الحد الذى يمثل سندا فعليا للحركة الصهيونية وتجسيدها ماديا لوعده بلفور اختلفت أساليب الدعاية كما ونوعا فى الأربعينيات عندما أصبح تحقيق الوطن القومى اليهودى فى فلسطين قاب قوسين أو أدنى وانكشف تماما الخطر الصهيونى أمام أعين رأى العام المصرى والعربى من خلال الصدمات الدامية التى وقعت بين الحركة الوطنية الفلسطينية فى مواجهة الحركة الصهيونية المدعومة بالمساندة البريطانية. حينئذ أصبح لزاما على الحركة الصهيونية أن تعيد النظر فى أساليبها الدعائية فلم تقدم على إصدار صحف صهيونية جديدة، ولكن عوضا عن ذلك فوجئ رأى العام المصرى بأسلوب دعائى صهيونى جديد تمثل فى إصدار مجلة مصرية ذات طابع ثقافى ضمت نخبة من كبار المثقفين المصريين وتمويل يهودى صهيونى وتحمل واجهة حضارية لا تحتمل إثارة الشكوك وهى مجلة الكاتب المصرى التى صدرت فى أكتوبر 1945 وكان يرأس تحريرها طه حسين وقد تعرضت لحملة عنيفة من جانب الصحف المصرية متهمة إياها بالخضوع لسيطرة اليهود الصهاينة وأن الهدف من إصدارها هو استقطاب المثقفين المصريين لصالح الحركة الصهيونية وشراء صمتهم إزاء الصراع العربى - الصهيونى فى فلسطين. وبالفعل فقد ثبت من متابعة وتحليل مضمون أعداد مجلة الكاتب المصرى تجاهلها الكامل وشبه المتعمد للقضية الفلسطينية فى الوقت الذى بلغت الصدمات العربية الصهيونية ذروتها، ولم تخل صحيفة مصرية من متابعة هذه الأحداث بشتى ألوان الكتابة والتغطية الصحفية، وكانت الكاتب المصرى لا تمنح القضية الفلسطينية أكثر من عمود أو اثنين كحدث هامشى، وكانت تقتصر على المعالجات الخيرية دون التعليق أو التحليل.

وعندما كشفت عن هذا الجانب فى كتابى الصحافة الصهيونية فى مصر الصادر عام 1980 ووجهت بعاصفة حارة من النقد من جانب كثير من المثقفين المصريين الذين أصيبوا بصدمة بسبب الخلط وسوء الفهم حيث تعاملوا مع القضية بمنظور أحادى يركز على استنكار واستبعاد تورط عميد الأدب العربى طه حسين مع بعض اليهود المصريين الموالين للصهيونية، وأغفلوا الجانب الأهم من القضية الذى ينبهنا إلى ضرورة فهم طبيعة الإستراتيجية الصهيونية التى استثمرت جميع القوى لخدمة أهدافها التوسعية، فهى مسلحة بدرجة عالية من التنظيم والنفس الطويل الذى تميزت به الحركة الصهيونية وممارسته بخبث ودهاء وقدرة بارعة على الخداع طوال مسيرتها منذ مؤتمر بال 1897. وفى إطار الالتزام بهذه الإستراتيجية تمكنت الصهيونية من اختراق معظم التيارات الفكرية والسياسية فى مصر عدا التيارات القومية والإسلامية، وتحت غطاء حرية الفكر والثقافة وضرورة نشر الفكر العقلانى والتنويرى نجحت الصهيونية فى اختراق نخبة المثقفين الليبراليين بزعامة طه حسين. كما نجحت فى اختراق الماركسيين المصريين من خلال إقناعهم بأولوية لصراع الطبقي وتهميش الصراع القومى وان السبيل الوحيد للنهوض بفلسطين يكمن فى وحدة الطبقة العاملة اليهودية والعربية، وهكذا نجحت الصهيونية فى استقطاب أهم التيارات الفكرية والسياسية الفاعلة على الساحة المصرية، وتمكنت من تحييد مواقفهم إزاء الصراع الفلسطينى - الصهيونى حتى يتم لها تحقيق حلمها التوسعى وإقامة دولتها على الأرض الفلسطينية المغتصبة.

### 3 - مغالطات تاريخية

هذه جوانب من المسكوت عنه فى السيرة الذاتية للطائفة اليهودية فى مصر، والذى أغفله المؤرخ الإسرائيلى الأمريكى جوئل بنين الذى يقول فى كتابه: "إن مصدر بحثى كان من الصحف، ومن ثم غابت تماما دراسة أشكال الانخراط السياسى والاقتصادى للطائفة اليهودية"، وقد لا يدرك أن هناك إجماعا من جانب المؤرخين وأساتذة الصحافة على أن الصحف تعد وثيقة تاريخية من الدرجة الأولى، ولكن لا يمكن الاستناد إليها وحدها بل لابد من دراستها فى إطار السياق الاجتماعى والتاريخى، وقد تحقق ذلك فى الدراستين اللتين وجهت إليهما افتراءاتك فقد اعتمدت دراستى على ما يزيد على 35 مرجعا عربيا و 30 مرجعا أجنبيا عدا الشخصيات اليهودية المصرية وأبرزهم الراحلون أحمد صادق سعد ويوسف درويش وشحاتة هارون الذين أمدونى بكثير من الوثائق المهمة عن خريطة اليهود وأعدادهم فى جميع محافظات مصر علاوة على شهاداتهم الواقعية وشهادة العديد من الماركسيين المصريين الذين عاصروا هنرى كوريل وتعاونوا معه.

إذا كانت الحقائق التاريخية تؤكد أن مصر قد استخدمت كقاعدة رئيسية للدعاية الصهيونية وأنه قد تم تجنيد واستقطاب اليهود المصريين لخدمة وتحقيق الأطماع التوسعية للصهيونية فى فلسطين وقد نجحت فى تحقيق الهدف الذى أنتهى باغتصاب حقوق الشعب الفلسطينى وطرده من أرضه كما شنت إسرائيل

عدة حروب ضدنا "1948 - 1956 - 1967 - 1973"، لم نسمع عن استشهاد يهودى مصرى واحد من ال 120 ألف شهيد مصرى ضحايا الاعتداءات الإسرائيلية.

يذكرنى كتاب "شنتات اليهود المصريين" بحملة الافتراءات التى تعرض لها الفلسطينيون ونشرتها الحركة الصهيونية قد باعوا أراضيهم لليهود ولذلك يستحقون ما حدث لهم من احتلال أراضيهم وطردهم منها وقد أثبتت الدراسات خطأ بل فحش هذا الافتراء، إذ أن الأرض التى كانت تحت أيدى الصهاينة عند صدور قرار التقسيم نوفمبر 1947 لم تكن تتعدى 6%.

وكانت تشمل أراضي كبار الإقطاعيين الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون خارج فلسطين وخضعوا لإجراءات الوكالة اليهودية وباعوا أراضيهم بأسعار باهظة ولكن الفلاحين الفلسطينيين رفضوا تسليمها للوكالة اليهودية التى استعانت بحراس ودبابات سلطات الانتداب البريطانى فاقتحمت الأراضي الفلسطينية ودكت الأرض بكل ما عليها من مساكن وبشر وسلمتها للوكالة اليهودية.

هذه هى إحدى الحقائق التى كشفت عنها الصحف المصرية خصوصا كوكب الشرق والبلاغ "أنظر الصحافة المصرية والقضية الفلسطينية سلسلة عالم المعرفة الكويت 1980"، السؤال الذى يجب أن نطرحه هو لماذا تثار هذه القضية الآن وما هى الأهداف الحقيقية التى تكمن خلف إثارتها بهذه الصورة المبتسرة غير المنصفة للمجتمع المصرى وزعاماته الوطنية والفكرية.

لقد دفعت ثمنا غاليا بسبب كتابى عن الصحافة الصهيونية فى مصر، وهذه قصة تستحق أن تروى فى مقال لاحق ومازلت وسأظل أوأمن بالمأثورة التى تؤكدتها الأحداث والشواهد التاريخية "إنك تستطيع أن تخدع بعض الناس بعض الوقت ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس طول الوقت".